مقولات السياق في فكر اللغويين القدامى (نموذج سيبويه)

Context sayings in the thought of ancient linguists (sibawayh model)

د: صغير سالم*

تاريخ الإرسال: 24 / 03 / 2021	تاريخ القبول: 07 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 20 / 12 / 2021

ملخص :

إنّ الناظر المتأمل في المدونات اللغوية التي ضبط أصحابها قواعد العربية يلحظ كثرة اهتمامهم بالجدل النظري والتحليل والتعليل الفلسفيين، وكلاهما يبعد اللغة عن واقعها، ويجعل منها صنعة لذاتها ورياضة ذهنية ليس للمعنى فيها كثير نصيب، ولا يخفى أنّ ذلك التضييق يفسد عليها أهمّ خصائصها وهي اكتنازها الدلالي، وبالمقابل يتجلى في الدرس التراثي؛ وخاصة لدى النظار الأوائل - وتحديدا أولئك الذين أسّسوا للغة من القرآن والشعر الفصيح - تميز وثراء في المقاربة والتأصيل، وتأتي هذه المقالة لتكشف عن بعض المقولات التي تؤكد حضور القضايا السياقية في تفكير سيبويه بوصفه علما متميزا عاش مع مَن يوثق بعربيتهم ويُستشهد بكلامهم، في جوّ لغوي يمثل ذروة مجد العربية وازدهارها، ومن هنا أدرك هذا اللغوي الفذ أنّ قطع كثير من النصوص اللغوية عن بيئتها وعزلها عن سياقها بمنزلة فصلها عن ماء حياتها، وقد وجدنا فيضا من الشواهد التي تثبت تجاوز الأوائل – وسيبويه منهم خاصة - المفردات والجمل إلى الظروف والملابسات التي تشكّل مسرحا لغويا لا غنى عنه في التحليل والتعليل والفهم.

الكلمات الدالة : السياق، فكر، اللغويين، سيبويه.

Résumé :

Le chercheur concerne par l'étude du corpus langagier arabe constate que les anciens linguistes arabes se sont intéressés à l'étude de la langue arabe en s'éloignant de sa réalité pour se préoccuper surtout des justifications et analyses philosophiques , en sous – estimant par là le sens ,

المؤلف المرسل: سالم صغير ssalem1820@gmail.com

* كلية الآداب واللغات بجامعة يحيى فارس بالمدية ssalem1820@gmail.com

ce qui corrompt ses spécificités sémantique . par contre un autre point de vue se manifeste chez d'autre anciens linguistes , ceux qui ont fondé l'étude de la langue à partir du coran et de la poésie , cette vision démontre une richesse et une originalité dans l'approche – qui tend – vers l'intérêt pour la contextualisation notamment dans les travaux de Sibawayh considéré alors comme savant éminent et qui a vécu à une époque où la langue arabe a été utilisée par la population à laquelle on se fie à sa langue , et de ce fait on peut citer ses propos .

Cette époque fût considérée comme l'époque de la gloire et de l'épanouissement , ce qui a amené Sibawayh , ce grand linguiste , de considérer qu'il est inopportun de séparer les textes de leurs environnements et de leurs contextes .

Effectivement nous avons trouvé beaucoupd'exemples qui manifestent l'intérêt des anciens et notamment Sibawayh pour l'analyse du lexique dans son contexte ,ce qui permet une analyse et un regard plus objectif sur le corpus langagier .

Mots clés: contexte, pensée, linguistes, Sibawayh

*** *** ***

1: مقدمة

نال سيبويه (ت 180 هـ) من المدح والثناء ما لم ينله غيره من النحاة ، وأطنب العلماء في وصف كتابه والثناء عليه ، وتملكهم العجب من إحاطة صاحبه بلغات العرب وهو الفارسي الشاب، فهذا صالح الجرمي (ت225 هـ) يدلّ على معرفته العربية بقوله : " أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه "[1] ، وابن جني (ت392 هـ) يثني على سيبويه فيقول : " وقد حطب [جمع] بكتابه - (وهو) ألف ورقة - علما مبتكرا ، ووضعا متجاوزا لما يسمع ويرى ، قلما تسند إليه حكاية، أو توصل به رواية "[2] ، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ) في معرض رده قول من رأى متأخري كل فن أحذق من متقدميه أنّ " كتاب سيبويه في العربية لم يصنف بعده مثله "[3]، ويكفي أنهم أطلقوا اسم (الكتاب) على مؤلفه بصيغة القصر ، وكأن لا كتاب إلا كتابه .

ويدرك الناظر في كتاب سيبويه أنّ الموسوعية التي تميز بها أوائل المؤلفين كانت ظاهرة في كتابه؛ فلم يكن الواحد منهم في دائرة معرفية واحدة لا يتجاوزها، وهو ما ترتب عليه عدم وجود المؤلف الدقيق المتخصص في علم بعينه، كما أنّ التبويب العلمي بمفهومه الحديث غاب في مؤلفات تلك المرحلة مما يجعل الباحث عن جزئية معينة يقرأ المؤلف

كاملا للإلمام بها ، ومن هنا لم يحظ موضوع السياق بباب مستقل في كتاب سيبويه انسجاما مع السائد في الكتابة والتأليف حينذاك ، ويكاد يجمع الباحثون أن السياق في الدرس العربي اشتد عوده وآتى أكله عند ابن جني (ت 392 هـ) من اللغويين ، وعبدالقاهر الجرجاني (ت 471 هـ) من البلاغيين ، وجار الله الزمخشري (ت 538 هـ) من المفسرين ، والإمام الشاطبي (ت 790 هـ) من الأصوليين ، وكان أكثر حضورا في بيئة الأصوليين ، حيث كانت عنايتهم بالقصدية ، وفحوى الخطاب ، وعرف الاستعمال ، والتغير الدلالي تبعا للسياقات اللفظية والمقامية المختلفة ، واهتمامهم وتنبيههم إلى ضرورة الاستعانة بالسياقين الداخلي والخارجي ، وهو ما تسميه نظرية السياق الحديثة بالموقف الكلامي بجميع عناصره دليل سبق ، وبرهان وعي عميق بإشكالية حديثة كانت عندهم جلية تنظيرا وتطبيقا ، بخلاف اللغويين – والنحاة منهم خاصة – الذين يعدون السياق مطلبا هامشيا في ظل صناعتهم التي تقوم على وجوب سلوك طريق الصواب المستنبط من كلام العرب الفصحاء ، وتجنب الخطأ قراءة وكتابة لا أكثر ، وها هو ابن جني – وهو من أكثر اللغويين انفتاحا على السياق – يؤكد هذا حين يرى غاية النحو " انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره ، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم ؛ وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها "[4]

ومن هنا جاءت فكرة المقال الذي يقوم على رصد مقولات السياق في ما أنجزه هذا الألمعي الفذ ، وإن لم يعبر عنها بذلك التحديد الدقيق الذي يتأسس عليه الدرس السياقي الحديث ؛ ولا مشاحة في الاصطلاح طالما الاتفاق على المفهوم حاضر يكاد يتطابق ، وهو أن اللغة لا تفهم إلا باستحضار ملابسات المسرح اللغوي المصاحبة للتركيب .

2. - السياق : مفهومه وامتداداته

ارتبط السياق في الثقافة الغربية بردة الفعل على علوم اللغة التي سعت إلى بناء علم خاص بها تنأى به عن الارتباطات التي يمكن أن تدخلها في مجابهات مع العلوم التي تعد في ذاتها سياقا من مثل علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس ، ومن هنا نظر علم اللغة إليها كنسق مغلق ومستقل ، وقد جعل تجريد اللغة من سياقها في فكر أكثر اللغويين الغربيين التفتيش عن المعنى مضنيا محيرا ، مما أدى إلى التمرد عليه والانعتاق من إساره - كفكر حجر وتضييق - وولادة علم جديد هو التداولية التي كانت ثمرة ارتباط اللغة بالسياق ،

ومساحة تلتقي فيها اللغة بالمعارف النفسية والاجتماعية ، أما عند العرب فقد ثبت انفتاح التراثيين على خارج اللغة ، وتأكد اشتغالهم في مجال اللسان والنص بما ليس مكتوبا بغية استكناه أقصى الدلالات التي هي جماع نصين ؛ نص ظاهر مسطور ، ونص حاف به يشمل سياق الخطاب بما فيه من أطراف التخاطب ومقامه ومقتضياته .

وإذا كان المفهوم اللغوي للألفاظ هو الأساس الذي يتضح المعنى الاصطلاحي به ويتجلى وجب بيان المعنى اللغوي كخلفية تحدد المعنى الاصطلاحي وتوضحه .

ذهب الزمخشري (ت 538 هـ) - رحمه الله - إلى أن (س و ق) لها معان متعددة منها : " ساق النعم فانساقت ، وقدم عليك بنو فلان فأقدتهم خيلا ، وأسقتهم إبلا - وجعل من الاستعمالات المجازية لهذا الأصل قولهم - : ساق الله إليه خيرا . وساق إليها المهر. وساقت الريح السحاب . وأردت هذه الدار بثمن ، فساقها الله إليك بلا ثمن . والمحتضر يسوق سياقا وفلان في ساقة العسكر : في آخره ، وهو جمع سائق كقادة في قائد . وهو يساوقه ويقاوده وتساوقت الإبل : تتابعت ، وهو يسوق الحديث أحسن سياق ، " وإليك يساق الحديث " وهذا الكلام مساقة إلى كذا ، وجئتك بالحديث على سوقه : على سرده ... والمرء سيقة القدر : يسوقه إلى ما قدر له لا يعدوه "[5] ، واللافت أن الزمخشري قد ربط السياق بالحديث والكلام فسياق الحديث ، وسوقه ، ومساق الكلام : سرده .

والسرد - عنده - يعني التتابع المنظم ، وأن يؤتى بالشيء منسجما بعضه في إثر بعض متتابعا " وسرد الحديث والقراءة : جاء بهما على ولاء . وفلان يخرق الأعراض بمسرده أي بلسانه "[6] ، و" سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه . وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له . "[7]

وفي المعجم الفلسفي " السياق في الفرنسية Contexte وفي الانجليزية Context سياق الكلام أسلوبه ومجراه . تقول وقعت هذه العبارة في سياق الكلام أي جاءت متفقة مع مجمل النص ومعنى العبارة يختلف باختلاف مجرى الكلام . فإذا شئت أن تفسر عبارة من نص وجب عليك أن تفسرها بحسب موقعها في سياق ذلك النص وسياق( ) Processusالحوادث مجراها وتسلسلها ، وارتباطها بعضها ببعض ، فإذا جاء الحادث متفقا مع الظروف المحيطة به كان واقعا في سياقها ، وإذا جاء مخالفا لها وجب البحث عن علة هذا الخلاف . تقول سياق المرض وسياق الظواهر النفسية أو الاجتماعية "[8]

وجاء في بعض المعاجم المعاصرة : " ساق الحديث : سرده وسلسله . وإليك يساق الحديث : يُوجَه ... وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه "[9]

فمما سبق نجد أن الدلالة اللغوية للسياق إذا ارتبط بالكلام : التتابع والتسلسل والتناسب دون انقطاع أو انفصال.

أما في الاصطلاح فالسياق هو كل ما يضيء عتمة النص ويزيل غرابته والتباسه من خلال المعطيات اللغوية وغير اللغوية ، " فكل كلمة ، أو جملة توضع في إطار أو نسق معين يعتبر هذا الإطار أو النسق سياقا لها ، فالكلمة المفردة لها سياقها والتركيب له سياقه ، والنص له سياقه ، وكل هذه السياقات تتشابك لتنضوي تحت السياق العام للنص ، فالجنس الأدبي يُشكل سياقا للنص الأدبي المتفرع عنه ، والنص بطبيعته يخضع للسياق الثقافي الذي يحتويه بكل ما فيه من أعراف وتقاليد ، ولهذا فإن عالم النص الأدبي ، وما يحيط به يُشكل سياقا جديداً يجعل المعاني تختلف عن المعاني الموجودة في المعجم "[10]

والسياق نوعان :

1.2. –السياق الداخلي:

للحدث اللغوي (السياق اللغوي) ، وهو المعنى الذي تتلون به الكلمة في إطار العلاقات بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في التركيب ، وذلك أن الكلمة لها معنى مركزي ، ودلالات هامشية حظيت بها من خلال استعمالاتها المتجددة في سياقات كلامية مختلفة ، فـ " كل كلمة لها معنى وليس لها دلالة ، لأن الدلالة من خصائص الجملة ، والجملة لا تتوفر إلا بتوفر التركيب ... فإذا كان المعنى يوجد بدون تركيب ، فإنه يستحيل أن توجد دلالة بدون تركيب "[11]

والسياق اللغوي بيئة لغوية عناصرها السياق الصوتي ، والصرفي ، والنحوي ، والمعجمي .

2.2 –السياق الخارجي :

وهو الإطار الخارجي للحدث الكلامي ، ففهم دلالة الخطاب لا يتم بالوقوف على تركيبه اللغوي فحسب ، بل لابد من الإلمام بالقرائن الأخرى الخارجة عن نطاق اللغة ، ذات الشأن في ضبط المعنى وتوجيهه ،وهي أشبه ما تكون بالتربة التي نبت فيها الخطاب ودرج .

وإذا كانت العرب تقول : (لكل مقام مقال) " فإننا نفترض أن هذه المقولة تعني أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية بين الخطاب وسياقه ، فهي العلاقة التي تفرض أن نفهم السياق بالمعنى الذي قد يضيق كثيرا فيعني النص نفسه باعتباره سياقا ، أو يمتد قليلا فيعني السياق الأدبي الذي ينتمي إليه النص وقد يتسع أكثر فيعني علاقة النص بالإنسان والمجتمع والتاريخ "[12]

3- عينات للتدليل على فلسفة القدامى في التأسيس للدرس اللغوي :

كان منطلق النحاة واللغويين في ضبط اللغة ووضع قواعدها تضييق دائرة من يهم يُقتدى ، وعنهم يؤخذ الشاهد والمثل ، بالإضافة إلى سنهم شرط الفصاحة ، وهو ما يجعل القواعد اللغوية تتأسس على كلام ذي طابع فني ، وقد كان الشعر والقرآن أهم مصدرين في تقنين اللغة ووضع المعايير التي تحكمها " فكتاب (سيبويه) وهو يعد أعظم كتاب شامل لمباحث النحو ، كما كان الأساس الذي اعتمد عليه وعلى شواهده معظم النحويين قد ضم (1050) خمسين وألف شاهد من الشعر على حين لا توجد فيه سوى آيات قليلة إذا قرنت بالشعر ، إذ تقل عن (400) أربعمائة آية "[13]

ورغم أن القرآن والشعر القديم يفيضان بالفنية والجمالية فإن جل النحاة واللغويين لم يكونوا كنظرائهم من المفسرين والبلاغيين الذين كان ديدنهم من الشاهدين القرآني والشعري استخراج نفائس المعاني الكامنة في ظلال الكلمات على ضوء السياق ، والذين كانت تأخذهم الهزة والطرب للشاهد الرائق الجميل ، فالبون شاسع بين الطائفتين ، B787وإذا كان الإعراب الذي هو النحو كشفا عن المعاني بالألفاظ ، فإنه على مستوى الممارسة غدا صنعة لذاتها ، ورياضة ذهنية لا وسيلة لبيان المعنى وكشفه عند كثير من النحاة ؛ فهذا ابن الأنباري (ت328 هـ) يشرح بيتا من معلقة امرئ القيس :

" أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

من صلة أغرك ، وأن موضعها رفع بأغرك ... وقاتلي موضعه رفع لأنه خبر أن ، وأن الثانية موضعها رفع لأنها منسوقة على أن الأولى ، والكاف اسم أن الثانية ، وتأمري موضعه جزم بمهما ، علامة الجزم فيه سقوط النون ، والقلب منصوب بتأمري ، ومهما موضعه نصب بأمر ... "[14]

هكذا سلك التبريزي في شرح بيت الشاعر الذي قيد الحب قلبه ، فلم يعد يملك أمره فغدت محبوبته تتدلل ، وهو لها يتذلل ! ويمضي التبريزي على نهجه هذا ، ويرتضيه في شرح جل شعر المعلقات ، ومن ذلك قوله شارحا بيت عنترة بن شداد :

" هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

قال الفراء : هلا ، ولولا ، ولوما ، إذا دخلت على ماض كانت توبيخا ولم يكن لها جواب ، كقولك ، هلا قمت ! هلا قعدت ! هلا اتقيت ربك ! وإذا دخلت على مستقبل كان جوابها بلا وبلى ، كقولك : هلا تقوم ؟ هلا تقعد ؟ هلا تجلس ؟ جوابه لا ، وبلى ... والتاء اسم الكون ، وجاهلة خبر الكون ، وتعلمي صلة ما ، والهاء المضمرة تعود على ما والتقدير فيه : بما لم تعلميه ، وعلامة الجزم في تعلمي سقوط النون . "[15]

هكذا تحول بيت عنترة الذي يخاطب به عبلة ابنة عمه - وهو من أروع ما قيل في الفخر والكبرياء ، والهمة العالية ، والتعفف عن اغتنام الأموال أوقات الحروب - إلى أوجه إعرابية ليس لقصد الشاعر فيها نصيب ، وكأن الشارح هد البيت هدا ، وعد إعراب الظاهر والمضمر منه عدا ، حتى تحول إعرابه إلى " رياضة ذهنية وليس له أي أثر على المعنى ، أو كأنه غاية أساسية من غايات الشارح ، بل كأنه أهم غاية له ، لأن أكثر كلامه في الشرح يدور على الإعراب بل الإعراب البسيط منه ، والكتاب مسماه : شرح القصائد وليس إعراب القصائد . "[16]

ومقابل هذا بدا فريق من النحاة واللغويين أكثر تحررا من قيود الصنعة ، وهي الفئة التي أطالت النظر لاستنباط المعاني الكامنة في النصوص والمناسبة للسياق ، ولعل مرجع هذا التحرر " أن إدراجهم القرآن والشعر في عداد المصادر اللغوية قد نبههم إلى بعض خصائصهما النوعية ودفعهم ، في نطاق مشاغلهم النحوية ، إلى جملة من الملاحظات البلاغية المفيدة خاصة أنهما يخرجان على معهود الكلام ويستعملان اللغة استعمالا خاصا لمقاصد فنية واضحة . "[17]

4: بعض مقولات السياق عند سيبويه :

أول ما يتضمن الإشارة إلى السياق في الكتاب قول سيبويه بوجوب المواءمة بين اللفظ والمعنى والابتعاد عن التعقيد الذي عد من شروط بلاغة الكلام عند من جاءوا بعده ، ففي تعليقه على بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حيّ أبوه يقاربه .

يضع بيت الشاعر في السخيف القبيح بقوله : " وهذا المعنى مع سخفه أمثل مما عبر به عنه من لفظه ... فأحال اللفظ حتى عمى المعنى السخيف فازداد قبحاً إلى سخفه . "[18]

ويتضح اهتمام سيبويه بالسياق اللغوي من خلال دراسته لظاهرة الحذف ، فقد مثل له في الكثير من أبواب كتابه ، وكان يستحضر محذوفا يستقيم معه السياق اللغوي المذكور ، ومن ذلك استدلاله ببيت أبي دواد :

" أكل امرىء تحسبين إمرءاً ونار توقد بالليل نارا

فاستغنيت عن تثنيته بذكرك إياه في أول الكلام ولقلة التباسه على المخاطب "[19]

وقد بين أن العرب اعتادت الحذف ، وجرت به لغتها لأسباب بلاغية تدور في حقل البداهة والخفة وإيثار الإيجاز ، ومن شواهد الحذف " لعلم المخاطب قوله عز وجل (والذاكرين الله كثيرا والذكرات والحافظين فروجهم والحافظات) فلم يعمل الآخر فيما أعمل فيه الأول استغناء عنه ، ومثل ذلك ونخلع ونترك من يفجرك "[20]

وبين في (باب أسماء القبائل والأحياء وما يضاف إلى الأب والأم) عادة العرب فيحذف المضاف لغرض التخفيف فقال : " أما ما يضاف إلى الآباء والأمهات فنحو قولك هذه بنو تميم ، وهذه بنو سلول ونحو ذلك ، فإذا قلت هذه تميم وهذه أسد وهذه سلول فإنما تريد ذلك المعنى ، غير أنك إذا حذفت ، حذفت المضاف تخفيفاً ، كما قال عز وجل (واسأل القرية) ، ويطؤهم الطريق ، وإنما تريد أهل القرية وأهل الطريق ، وهذا في كلام العرب كثير ، فلما حذفت المضاف وقع على المضاف إليه ما يقع على المضاف . "[21]

وسيبويه يرى أن اعتماد ظاهر اللفظ لا يكفي وحده في الفهم لأن اللفظ قد يكون واحدا مع اختلاف المعنى؛ لأن من كلام العرب " اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين . "[22]

وفي التراث النحوي السيبويهي عناصر تتماس أحيانا مع ما يوجد في بعض فروع اللسانيات الحديثة وخاصة اللسانيات الاجتماعية ، فسيبويه لا يكتفي في تحليله وتنظيره بالمجال اللغوي الصرف بل يوسع الدائرة إلى ما وراء ذلك فيستعين بعناصر غير لغوية ومعطيات خارجية توجه الدلالة منها المتكلم والمتلقي والسياق العام الحاف بالخطاب .

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن " نحاة العرب بنوا علم النحو على مبدإ التخفيف، والفرق ، وهو مبدأ الاقتصاد اللغوي الذي أثبته اللغويون المعاصرون ... ومفاده أن المتكلم همه أن يبلغ أقصى ما يمكن من الفوائد بأدنى مجهود ممكن ... وهو ما يقصده البلاغيون في قولهم (ما قلّ لفظه وكثر معناه) وقد أخذت ظروف الكلام وسياقه الخارجي بعين الاعتبار في التحليل النحوي التراثي ... وعند سيبويه نماذج كثيرة من ذلك يعتمد فيها إمام النحاة المقام والسياق ، ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلبا للاطراد المحكم ؛ من ذلك تفسيره لقولهم : (أتميميا مرة وقيسيا مرة أخرى) ، فهذا يفهم على أنه لوم إذا قيل عندما ترى رجلا في حال تلون وتنقل حسب تعبير سيبويه فأنت في هذا الحال تعمل في تثبيت هذا له ، ففهم المعنى المقصود من هذا الكلام يقتضي تظافر التركيب ومقتضى الحال الذي هو عنصر غير لغوي . "[23]

ويذكر السيرافي في شرحه وتعليقه على بعض شواهد الكتاب أن الذي يصير الكلام " مدحا وثناء أو شتما وتقبيحا ، قصد المتكلم به إلى ذلك، وربما قصد الإنسان بقوله : فلان فاضل شجاع إلى الهزء به، يتبين ذلك في لفظه من محاوره، وهذا معروف في عادات كلام العرب. "[24]

إن استكناه الدلالة من سياق الخطاب هو ما فهمه شارح الكتاب ، وهو حس لدى المتقدمين دقيق ينبني في تخريج دلالة الخطاب وتأويله على استحضار المعطيات الحافة به ، وهي في كلام السيرافي معطى نفسي خفي (قصد المتكلم) ، ومعطى السياق اللغوي (لفظه من محاوره) والأعراف الاجتماعية (عادات كلام العرب) .

ويلح شيخ النحاة على أهل صناعته بضرورة استحضار الملابسات الخارجية الحافة بالكلام لا الاكتفاء بالظاهر اللغوي ، وفي ذلك يقول : " فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب ، وذلك أن رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال أنا عبدُ الله منطلِقا وهو زيدٌ منطلقا كان محالا لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية لأن هو وأنا علامتان للمضمر وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني إلا أن رجلا لو كان خلف

حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت من أنت فقال أنا زيدٌ منطلقا في حاجتك كان حسنا "[25]

يبيّن صاحب الكتاب هنا ما يحسن وما لا يحسن من إضمار وإظهار يتطلبه السياق ؛ فلا مبرر لذكر الاسمين الظاهرين (عبدُ الله ، زيدٌ) طالما يعرف المخاطب (إخوانك ومعرفك) من تعني ، فهنا يتوارى الاسم ، وهو المضمر الحاضر بين المتخاطبين ، أما حين يتغير السياق فقد يكون ذلك موجبا للإظهار في مقام الإضمار ، وفي هذا يرى سيبويه أنك قد تقول لمن يعرفك : " أنا عبدُ الله ، فاخراً أو موعِداً . أي اعرفني بما كنت تعرف وبما كان يَبلغك عني ... لأنك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنه قد جَهل ، أو تنزل المخاطَب منزلة من يجهل فخراً أو تهدُداً أو وعيداً ، فصار هذا كتعريفك إياه باسمه . "[26]

لقد كان منطلق سيبويه في الحكم على التركيب بالصواب والخطأ استحضار ملابسات المسرح اللغوي المصاحبة للتركيب ، فرغم أن الجملتين صحيحتان من وجهة النظر النحوية (أنا عبدُ الله منطلقا - عبدُ الله منطلقٌ) و (هو زيدٌ منطلقا - زيدٌ منطلقٌ) إلا أن الصحة الحقيقية لا يضطلع بها البناء اللغوي السليم فحسب بل يعضده في ذلك السياق الملابس له .

" وانظر إلى سيبويه كيف يؤكد على أن الرجل المُخاطَب كان خلف حائط ، أو في موضع تجهله فيه ، كيف يؤثر موقعه منك على مجريات المعنى وبناء التركيب . وهو أمر يدخل في أنظمة الدلالة العضوية Organicsemanticsystems في شق من الدراسات التواصلية التي تعنى بالأوضاع الجسمية postures وبمسألة التجاور والقرب Proximity أي المسافة التي تفصل المتخاطبين فيما بينهم ، وهي مسألة عرفية تواصلية دقيقة "[27]

وإذا كان الكلام يتوجه من وإلى طرفين (المرسل والمتلقي) فإن اهتمام سيبويه لم يكن يختص بالجانب اللساني اللغوي فحسب بل يجاوزه إلى السياق المقامي ، ذلك أن الكلام كثيرا ما يكون فهمه أمرا مستعصيا على المتلقي دون استحضار سياقه ، من ذلك ما ذكره سيبويه في [باب أسماء السور] حيث يلتبس علينا فهم قول من يقول : (هذه الرحمنُ) ليقيننا باستحالة الإشارة إلى الرحمان بما هو خاص باسم المؤنث لتعارضها مع الثوابت العقدية للمسلم ، ومن هنا يزيل السياق اللبس ويرفعه حين ندرك أن المتكلم يقصد سورة الرحمن بحذفه (سورة) ، على طريقة العرب في قولهم : هذه أسد ، وهذه تميم ، يقول

سيبويه : " فأما نوح فبمنزلة هود تقول هذه نوح إذا أردت أن تحذف سورة من قولك هذه سورة نوح ، ومما يدلك على أنك حذفت سورة قولهم هذه الرحمن ولا يكون هذا أبدا إلا وأنت تريد سورة الرحمن ، وقد يجوز أن تجعل نوح اسما ويصير بمنزلة امرأة سميتها "[28]

فهذه الرحمن لا معنى لها إلا : (هذه سورة الرحمن) بخلاف هذه نوح التي يراد بها هذه سورة نوح كما قد يراد بها غيرها ، وفهم المعنى الثابت والمتغير جاء في ضوء السياق " إن عزل المتن اللغوي – فيما نعتقد – عن سياقه هو بمنزلة فصله عن ماء حياته ، فلكم هي المواقف التي مرت بنا أثناء إعراب شواهد قرآنية أو شعرية ، تبلبلت فيها الألسن واضطربت الآراء ، ومرد ذلك أنها معزولة عن سياقاتها العامة في القرآن الكريم أو في القصيدة المنظومة . "[29]

إن التنظير السيبويهي كان ينطلق من فكرة التركيب الظاهر الذي ينبني على افتراض أصل غائب مقدر ينبغي استحضاره لفهم المعنى ، وهو ما قد يتقاطع مع نظرية تشومسكي في النحو التحويلي التوليدي ، ففي (باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره من غير الأمر والنهي) يقول سيبويه : " وذلك إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحاج قاصدا في هيئة الحاج فقلت مكة وربِ الكعبة حيث ركنت أنه يريد مكة ، كأنك قلت يريد مكة والله ... أو رأيت رجلا يسدد سهما قبل القرطاس فقلت القرطاس والله ، أي يصيب القرطاس ، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت القرطاس والله ، أي أصاب القرطاس ، ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال ، وأنت منهم بعيد فكبروا ، لقلت الهلال وربِ الكعبة أي أبصروا الهلال أو رأيت ضربا فقلت على وجه التفاؤل عبد الله أي يقع بعبد الله أو بعبد الله يكون . "[30]

إن النص ساطع الدلالة على نباهة القدامى ومراعاتهم حواس المخاطب لاختيار نظام تعبيري دون سواه ، فالمشاهدة العينية والسمع تغدوان برهان المتكلم في تشكيل صياغة تتواءم مع الظروف والأحوال ، فإذا رأيت - حسب سيبويه - رجلا يحمل متاعا قاصدا مكة في موسم الحج أوحى لك مشهد الرجل وهيئته أنه يريد الحج ، فيحذف المتكلم حينئذ ما دلت المشاهدة عليه ، فلولا المعاينة التي شكلت قرينة تدل على المحذوف لما جاز حذف جزء محوري من الجملة ، وذكر شارح الكتاب أن " هذا من الباب الذي يجوز إظهار الفعل فيه وإضماره لحال حاضرة ودلالة بينة "[31]

فلولا تعالق المشاهد والمسموع مع الملفوظ ، وهي كلها موضع " عناية عند السيميائيينالتداوليين وعلماء الإناسة لما وجدنا إلى فهم الملفوظات سبيلا .

التقدير	حاسة رصده	وضعية المتكلم	السياق المقامي التواصلي	القول الطبيعي
يريد مكة والله	الرؤية بالعين	حاضر قريب	شخص متوجه وجهة الحاج ويتزيى بزي الإحرام	مكة ورب الكعبة
يصيب القرطاس	الرؤية بالعين	حاضر قريب	رجل يسدد سهما صوب القرطاس	القرطاس والله
أصاب القرطاس	السمع بالأذن	حاضر قريب	رجل أصاب بسهمه القرطاس	القرطاس والله
أبصروا الهلال	الرؤية بالعين والسمع بالأذن	حاضر بعيد	ناس ينظرون الهلال ويكبرون	الهلال ورب الكعبة
يقع بعبد الله أو بعبد الله يكون	الرؤية بالعين	حاضر بعيد	أحد الناس يقع عليه الضرب	عبد الله

إن المحذوف المقدر في مثل هذه الأقوال الطبيعية يتعلق استحضاره بعناصر متعددة منها وضعية المتكلم والمخاطب تجاورهما Proximity وموقعهما من مرجع خطابهما أو الموضوع والعالم الخارجي (أي المعلومات الحاصلة على الواقع والتي تساعد المستدل على بناء دليله بوجه يستفاد منه أن المقصود هو معنى لم يتناوله اللفظ بالنطق ، كما أنها

تساعد المستمع على تبين مراد المتكلم ، وكذا المعرفة المشتركة MutualKnowledge التي تفضي للدلالة البينة وهي جملة من الاعتقادات والتصورات عن الذات والغير والأشياء والمعاني ، يشترك فيها المتكلم والمخاطب مع جمهور الناطقين وهي أنواع : لغوية وثقافية وعملية وحوارية "[32]

والمحصلة أن نظرة سيبويه لعلم النحو كانت أشمل مما هي عليه عند من جاءوا بعده لأنه بالإضافة إلى تأصيله قواعد العربية كان يهتم بأسرارها ، وبيان ما فيها من قوة أو ضعف من جمال أو قبح ، فاللهم ارحم سيبويه " فقد كان منارا يشع بالهداية لعلماء البلاغة ولكن مباحثه النحوية أعشت عيونهم فلم يلتفتوا إلى مباحثه البلاغية ، ولم يقدروها حق قدرها . "[33]

5: خاتمة:

إذا كان لمقالنا المتواضع أن ينتهي إلى نتائج فقد رأينا من المفيد أن نبلور أهمها في شكل نقاط وهي :

- إن منهج سيبويه في التقعيد النحوي لا يتوقف عند حدود المفردات والجمل ، بل يتعدى ذلك إلى الظروف والملابسات التي تشكل مسرحا لغويا لا غنى عنه في التدليل التحليل والتعليل ؛ فقد كان محيط الحدث اللغوي مما يرتبط بكل من المرسل والمرسل إليه من صميم اهتماماته .

- حظيت مقولات السياق من متكلم، ومخاطب ، وحال ، وأحوال ، ومنزلة ، وخلف ، وزمان ، ومكان وغيرها بعنايته ، كما كان له فضل السبق في وعيه وحديثه عن سياق الحواس وعلاقته بالحذف .

- في تراث سيبويه عبارات مما يعنى به علم اللغة الحديث ، فهو في باب الحذف يشير إلى مبدأ الاقتصاد اللغوي الذي تحدث عنه المعاصرون ، وهو في ذلك يعتد ويثق بالمخاطب الذي يملأ الفراغ بما يستمده من معطيات المقام ليكتمل الخطاب ويتضح . فيكون في موضعه بلاغة ، وذكره عبثا وإسهابا .

- نحى سيبويه منهجا وسطا، فلم يكن من الذين حامت أبحاثهم حول النصوص وجانبت بنيتها الداخلية ، ولا ممن اقتصر اهتمامهم على جعل النصوص بنية لغوية مغلقة تقتصر على ما تفيده الألفاظ من معان و دلالات .

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

6. الهوامش:

1) أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي ، مجالس العلماء ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) ص191 .
2) أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) ، ج3 ، ص312 .
3) شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ، مجموعة الفتاوى ، اعتنى بها وخرج أحاديثها : عامر الجزار ، و أنور الباز ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، ط3 1426هـ – 2005م ، ج11 ، ص202 .
4) أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج1 ، ص34 .
5) الإمام الكبير جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، بتحقيق : عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) (د.ت) ، ص 225 . مادة (س و ق) .
6) المرجع نفسه ، ص208 ، مادة (س رد)
7) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم - ابن منظور الإفريقي المصري - لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1414هـ ، ج 3 ، ص211 ، مادة (س رد) .
8) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1978م ، ص681 .
9) إبراهيم أنيس ، عطية الصوالحي ، عبد الحليم منتصر ، محمد خلف الأحمر ، المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية – دار الشروق الدولية ، القاهرة ، مصر ، ط4 2004م ، ص464 – 465 .
10) المهدي إبراهيم الغويل ، السياق و أثره في المعنى - دراسة أسلوبية – دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ليبيا ، (طبعة 2011) ، ص17 .
11) علي آيتأوشان ، السياق والنص الشعري – من البنية إلى القراءة – مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء المغرب ، ط1 ، 1421هـ - 2000م ، ص43 .
12) حسن المودن ، بلاغة الإقناع - نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب – دار كنوز ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2014م ، ص313 .
13) عبد الجبار علوان النايلة ، الشواهد والاستشهاد في النحو ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، العراق ، ط1 ، 1396هـ - 1976م ، ص29 .
14) أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري ، شرح القصائد السبع الطوال ، تحقيق وتعليق : عبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط5 ، (د.ت) ص45 .
15) المرجع نفسه ، ص342 - 343 .
16) عادل حسني يوسف ، فهم النص بين المفسرين وشراح الشعر ، مجلة عالم الكتب ، المجلد التاسع والعشرون العددان الثالث والرابع (ذو القعدة - ذو الحجة 1428هـ / المحرم - صفر 1429هـ) ديسمبر 2007م - مارس 2008م ، ص343 .
17) حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب - أسسه وتطوره إلى القرن السادس – تونس ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية ،(د.ط) ، 1981م - ص49 .

18) سيبويه ، كتاب سيبويه ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، لبنان ، ط3 ، 1410هـ - 1990م ، ج1 ، ص22 – 23 .
19) المرجع نفسه ، ج1 ، ص46 .
20) المرجع نفسه ، ج1 ، ص50 .
21) المرجع نفسه ، ج2 ، ص29 .
22) المرجع نفسه ، ج1 ، ص15 .
23) عبد القادر المهيري ، بحوث في اللغة وتراثها وتدريس النحو ، تونس ، جامعة منوبة ، كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، سلسلة اللسانيات ، 2008م ، ص46 .
24) أبو سعيد السيرافي ، شرح كتاب سيبويه ، تحقيق : أحمد حسن مهدلي ، وعلي سيد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1429هـ - 2008مج2 ، ص395 .
25) سيبويه ، كتاب سيبويه ، ج1 ، ص299 - 300 .
26) المرجع نفسه ،ج1 ، ص299 .
27) إدريس مقبول ، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ، جدارا للكتاب العالمي، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2006م ، ص315 .
28) سيبويه ، كتاب سيبويه ، ج2 ، ص35 .
29) إدريس مقبول ، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ، ص316 .
30) سيبويه ، كتاب سيبويه ، ج1 ، ص154 – 155 .
31) أبو سعيد السيرافي ، شرح كتاب سيبويه ، ج2 ، ص156 .
32) إدريس مقبول ، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ، ص318 – 320 .
33) عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ، دار غريب للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1998م ، ص 132 .